



خطر الكتابة بالعامية

تأليف

محمد إسماعيل المقدم

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية - أبو سليمان - شارع عمر - أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٥٠١٣١٥١ المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

راسلونا على صفحتنا على الفيس بوك: «دار الخلفاء الراشدين»



اسم الكتاب: خطر الكتابة بالعامية
اسم المؤلف: محمد إسماعيل المقدم
القطع: ١٢×١٧ سم
عدد الصفحات: ٦٤ صفحة
سنة الطبع: ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م
الطبعة: الأولى

رقم الإيداع
٢٠١٧/١٧٤١٤م

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية أبو سليمان ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧

طبع • نشر • توزيع



الحمد لله الذي تفضَّل ووهب، والصلاة والسلام على سيِّد ولدِ آدمَ المبعوثِ من أشرفِ قبائلِ العرب، وعلى آله وصحبه الذين حازوا أعلى الرتب، وجازُوا على بحور البلاغة والأدب.

أما بعد:

فقد تعددت مظاهر الكيد للغة العربية منذ وقع الاحتلال الغربي للبلاد الإسلامية، وقد شخَّص شيخُ العربية العلامة محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدافع وراء الحملة على الفصحى، فقال: «منذ استيقظ العالم الأوروبي لنهضته الحديثة، وهو يرى عجبًا من حوله، أمم مختلفة الأجناس والألسنة من قلب روسيا، إلى الصين، إلى الهند، إلى جزائر الهند، إلى فارس، إلى تركيا، إلى بلاد العرب، إلى

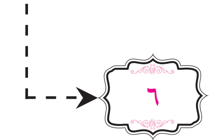
شـمال إفريقيـة، إلى القـارة الإفريقية وسـواحلها، إلى قلب أُوروبة نفسـها، تتلو كتابًا واحدًا يجمعها، يقرؤه مَن لسـانُه العربية، ومن لسانه غير العربية، وتحفظه جمهرة كبيرة منهم عـن ظهر قلـب، عرفت لغة العـرب أم لم تعرفهـا، ومن لم يحفـظ جميعه حفِظ بعضه، ليُقِيمَ به صلاته، وتداخلت لغته في اللغـات، وتحولت خطـوط الأمم إلى الخط الذي يُكتب به هذا الكتاب، كالهند وجزائر الهند، وفارس، وسـائر من دان بالإسـلام، **فـكان عجبًا أن يكـون في الأرض كتاب له هذه القوة الخارقة في تحويل البشر إلى اتجاه واحد متسق على اختلاف الأجناس والألوان والألسنة**»[1] اهـ.

لقد كانت الغاية الأسـمى التي رسمها أعداء أمتنا هي إحـداث القطيعـة بين المسـلمين وبين هذا الكتـاب المجيد الـذي ظلـوا يسـتمدون منـه قِيَمَهـم ومبادئهـم ورؤيتهم للحياة وللوجود.

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٥٨).

وقد نشرت «الهلال» عام ١٩٣٤ مقالًا عجيبًا للدكتور حسين الهراوي، ضمنه تقريرًا وقع في يده للجنة العمل المغربي الفرنسية، يقول الدكتور حسين: «فرأيت هذا التقرير يتبع السياسة الاستعمارية، ويصف مقاومة الإسلام، **والتقارير السرية التي يرسلها المستشرقون في البلاد المستعمرة إلى حكوماتهم لمقاومة الإسلام؛ لأن رُوحه تتنافى مع الاستعمار، وأن أول واجب في هذا السبيل هو التقليل من أهمية اللغة، وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلية في شمال إفريقية واللغات العامية؛ حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم، ويمكن التغلب على عواطفهم»**[(١)].

(١) «اللسان العربي والإسلام» للدكتور السيد رزق الطويل (ص٧٩) نقلًا عن الهلال- عدد يناير ١٩٣٤ (ص٣٢١-٣٢٨) تحت عنوان: هل ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم؟



ومن مظاهر الكيد للفصحى:

١- نشر اللغات الأجنبيّة واعتمادها لغة التعليم؛ بغية السيطرة على العرب، وجعلهم تابعين للاستعمار تبعيّة مطلقة.

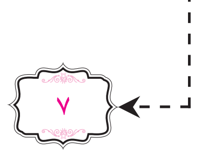
٢- هجر الفصيحة تمهيدًا للقضاء عليها، وما يتبع ذلك من فصل العرب عن تراثهم ودينهم.

٣- السخرية من اللغة الفصحى، وتحقير أهلها في المواد الإعلامية الهزلية.

٤- الدعوة إلى اللغة الثالثة أو الوسيطة، أو الفُصَّعَمية أو الخنثى على نحو ما قرره عباس خضر، أو «الفصحى المخففة والعامية المشرقة» على نحو ما قرره فرح أنطون.

٥- الدعوة إلى الإبقاء على الفصحى، مع إلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات.

٦- الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية.



٧- الدعوة إلى تطوير النحو والبلاغة.

٨- اصطناع الشعر المنثور.

٩- تشجيع الأدب الشعبي[١].

---

(١) وهـذه طريقة غير مباشرة لإنعاش العامية، وتحويـل الأدب العربي إلى أدب شـعبي متفرق على أساس إقليمي، فيصبح بين أيدينا أدب شامي، وعراقي، ومصري، وحجازي، ونجدي، وجزائري ... إلخ.
وبـدلًا مـن اسـتخراج كنـوز الفصحـى الأدبيـة وتحقيقهـا يتجـه الباحثون والدارسـون إلى مثـل قصـة «الزيـر»، و«عنـتر»، و«سـيف بـن ذي يَـزَن»، و«تغريبة بني هلال». وما أحسـن ما قال الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشـا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سـياق الرد على الدعاة إلى الأدب الشـعبي: (وكم أحرجْنا هؤلاء الدُّعاةَ حين كنَّا نسـألهم عن «أبي الطَّيِّب» الـذي وُلِد في «الكوفة» من أرضِ «العـراق»... وغَنَّـى أَعْذبَ ألْحانِـه في «حَلَبَ» من بلاد «الشَّـام»... وصاغ أَحْكَـمَ قَوافيـهِ في أرضِ الكِنانـةِ «مِصْرَ»... وأَعطى أَصْـدَقَ تأمُّلاتِه في بلاد «فارِسَ»...
أهو عِراقيٌّ، أَمْ شاميٌّ؟؟...
أَمْ مِصريٌّ، أَمْ فارسيٌّ؟؟...
وفي أدب أيِّ إقليمٍ يُمكِنُ أن يوضَعَ أدبُه؟؟.
وليس «أبو الطَّيِّب» بِدْعًا في ذلك، وإنما يُشـارِيهِ في هذا عددٌ كبيرٌ مِن أدبائنا الأفذاذ، من أمثال «أبي تمَّـام»، و«البُحْتُرِيِّ»، و«أبي العَلاء»، ومئاتٍ غَيرِهِم من الكُتَّاب والشُّعراء) اهـ. من «العدوان على العربية عدوان على الإسلام» (ص٣٦).

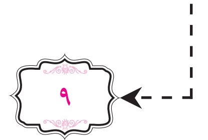
١٠- تغريب الأدب.

١١- على أن أخطر هذه المحاور كان الترويج للعامية، ووضع القواعد لها، وتحديد كيفية رسم كلماتها، ونقلها من اللهجة المنطوقة المقصورة على الاستعمال (الوظيفيِّ) في الحياة اليومية إلى اللغة المكتوبة المستعملة في التأليف والبحث والإدارة؛ أي: جعل العامية لغة أدبيَّةً بدلًا من الفصيحة.

إن الدعوة إلى العامية لا يمكن أن تكون دعوة بريئة نزيهة، وإنما هي محاولة لاقتلاع الإنسان المسلم من ثقافة أمَّته وعزله ثقافيًّا وشعوريًّا؛ ليسهل تشكيله وإلحاقه بأي نموذج ثقافي آخر[1].

والدعوة إلى العامية زائفة المحتوى، ومعادية من حيث أهدافُها:

(١) «الدعوة إلى العامية: المسار والأهداف» للدكتور مصطفى بن حمزة (ص٢١).



- أما زيف محتواها: فلأنها تدعو إلى استعمال العامية انطلاقًا مِن زَعْم كونها لغة مستقلة عن الفصحى، وما هي في الحقيقة إلا مستوى تعبيريٌّ من مستويات الفصحى، منطوق ومستعمل في الحياة اليومية، وعليه فإن مِن تحصيل الحاصل الدعوةَ إلى استعمال المستعمل. وقيمة العامية كامنةٌ في أنها (منطوقة)، وهذا سرُّ مرونتها وحرارتها، فإذا دُوِّنت جمَدَتْ، وبات من المحتم نشوءُ عامِّيَّةٍ أخرى جديدة.

- وأما كونُها معاديةَ الأهداف:

فإن أنصار الفصيحة لم يحاربوا الدعوة إلى العامية لمجرد مخالفتهم لمحتواها، أو جهلهم بزيفها؛ بل حاربوها لِما تضمره من أهداف معادية للأمَّة ولدينها وتراثها الإسلاميِّ العربي[١].

(١) انظر مقالة الدكتور أحمد بن عبد الرحمن بالخير، المنشورة على الشبكة العنكبوتية بعنوان: «في قضية العامية والفصحى: الدعوة إلى استعمال المستعمل».

إن (ثنائية العامية والفصحى) من أكبر المشاكل التي تعرضت لها لغتنا العربية في تاريخنا الحديث، والتي تجسدت في «التبشير» بإحلال الأولى محل الثانية، وادَّعى «المبشرون» بالعامية أنها ذات طواعية ومرونة في الفهم، وأنها قادرة على التعبير الكتابي «الأمثل» عما يريده الناطق بها في زعمهم!

«لقد كثر خلط دعاة التغريب في الحديث عن الفصحى والعامية، ومحاولة الادعاء بأن العامية لغة (مستقلة) بذاتها، كالعربية، والحق أن هناك لغةً واحدة هي العربية، و(لهجة) هي العامية، وأن الفصحى هي اللغة المشتركة بين العرب جميعًا، وأنها هي القوة القادرة المؤهلة للمحافظة على بقاء المستوى البياني بين القرآن واللغة العربية، وأن أخطر الأخطار أن يُمَسَّ هذا المستوى، أو تجري محاولة للانتقاص منه»[(١)].

---

(١) «اللغة» للأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٢٥، ٢٦).

لقد وُجِدت العامية منذ العصور التاريخية القديمة «في صورة لهجات يستعملها العامة في بيئات مختلفة، وهُم يعرفون أنهم باستعمالهم إياها لا يبلغون المستوى الرفيع الذي يبلغونه بالفصحى؛ ولذلك كانت العامية محصورة في بيئات التخاطب الضيقة التي كانت بيئات منعزلة.

لم تكن العامية ترقى لتكون لغة الأدب أو الثقافة أو الدواوين الرسمية، ولم تكن الدروس تُلقى بها في حلَقات العلم[(١)]؛ ولذلك لم يكن لها خطر على الفصحى

---

(١) من طريف ما يذكر في هذا الموضع ما سطره الشوكاني في «البدر الطالع» (٢/ ١٣٨، ١٣٩) في أثناء ترجمته للأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال الشوكاني: قد رأيته في المنام في سنة ١٢٠٦ وهو يمشي راجلًا وأنا راكب في جماعة معي، فلما رأيته نزلت وسلَّمتُ عليه، فدار بيني وبينه كلام، حفِظتُ منه أنه قال: «دقِّقِ الإسناد، وتأنَّقْ في تفسير كلام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». فخطر ببالي عند ذلك أنه يشير إلى ما أصنعه في قراءة البخاري في الجامع، وكان يحضر تلك القراءةَ جماعةٌ من العلماء، ويجتمع من العوام عالَم لا يُحصون، فكنت في بعض الأوقات أفسِّر الألفاظ الحديثية بما يفهم أولئك العوام الحاضرون، فأردت أن أقول له: إنه يحضر جماعة لا يفهمون بعض الألفاظ العربية... فبادر وقال قبل أن أتكلم: «قد علِمتُ أنه يقرأ عليك جماعة وفيهم عامة، =

في تلك الأيام»[١].

وكان لكل من العامية والفصحى دورٌ في التعبير، تؤديه في ميدانها: أمَّا العامية المحكيةُ فكان يُمليها الانفعال الآنيُّ بالمواقف اليومية العادية، وأمَّا الفصحى المكتوبةُ فكان يمليها تملِّي الفكرة والانفعال المركز بها.

=ولكن: دقِّقِ الإسناد، وتأنَّقْ في تفسير كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».
ثم سألته عند ذلك عن أهل الحديث: ما حالهم في الآخرة؟ فقال: بلغوا بحديثهم الجنة، أو: بلغوا بحديثهم بين يدي الرحمن -الشك مني-. ثم بكى بكاء عاليًا، وضمني إليه، وفارقني. فقصصت ذلك على بعض مَن له يد في التعبير، وسألته عن تأويل البكاء والضم، فقال: لا بد أن يجري لك شيء مما جرى له من الامتحان. فوقع من ذلك بعد تلك الرؤيا عجائب وغرائب كفى الله شرها. اهـ.

(١) «اللغة العربية في عصر العولمة» للدكتور أحمد بن محمد الضبيب (ص٢١٤).

مقارنة بين الفصحى والعامية



الدعـوة إلى العاميـة كبديل للعربية مؤسَّسـة على خطأ معـرفي كبير، هو توهُّـم التكافؤ بـين العاميـة والفصحى، واستوائها معها في الإفصاح عن كل المعاني من غير إخلال بشيء منها ولا تضحيةٍ بأكثرها.

إن توهُّـم إمـكان تفريـغ معـاني الفصحـى ودلالات ألفاظها في لهجة عامية أَشـبَه ما يكون بمحاولة تفريغ بحر محيـط في كأس صغيرة، إن لم نقـل: إنه محاولة قاصدة وغير معلنة للتضحيـة بكل المعاني والمضامين الدينية والحضارية التي تحملها الكلمة العربية مثلما تحمل البصمة الوراثية كل خصائص صاحبها[1].

(١) انظر مقالة الدكتور مصطفى بن حمزة «الدعوة إلى العامية: المسار والأهداف» (ص١٤، ١٦).

وفيما يلي نعقد مقارنة تجسد خطر العامية على الذائقة اللغوية، وعلى استمرار اتصالنا بتراثنا، وعلى هُويتنا الناطقة:

* الفصحى -لأنها لغة حديث وكتابة- أداة مُحكَمة، قواعدها مضبوطة، وسننها واضحة، ونطقها قويم، ومراجعها الموثقة لا يُحصيها العَدُّ.

* أما العامية- فلأنها لغة تخاطبٍ محكيَّةٌ فحسْبُ- فإنها قاصرة قصورًا ذاتيًّا، مفتقرة إلى القواعد والضوابط والنظم التي تصونها من الفوضى، وليس لها مرجع يُرجَع إليه، كما أنها مضطربة في أساليبها ومعاني ألفاظها، وإملاؤها بدائي ليس له نظام مُجرَّب، وفي الكتابة بها مشقة بالغة، ولا توفر وقتًا ولا جهدًا.

وما يجده الدعاة إلى العامية من الصعوبة في اختصاص اللغة الفصيحة بالعلوم والفنون واستئثارها بالكتابة،

سـيجدونه في نقـل العلوم إلى اللغة العاميـة، بل يجدون في الثاني ما هو أشد من الأول.

* والعاميـة فقيرة كل الفقر في مفرداتها، التي لا تحتوي أكثر مـن الكلمات الضرورية في الحديـث العادي، ولفقرها وضآلتها لا تكاد ألفاظها تتجاوز دائرة الحاجات الضرورية الماديـة، وليـس فيها من الكلمات مـا يصلح للاصطلاحات العلميـة أو الفنية، ويليق بالمعاني الأدبيـة، ولا نظام لمبانيها، ولا قانون لتراكيبها؛ لأنها فاقدةٌ القواعدَ الصرفية والنحْوية.

ومِـن ثَم فـإن العامية عاجـزة كل العجز عن منافسـة الفصحـى، بَلْـه أن تحـل محلهـا، وعاجزة أشـد العجز عن معالجـة الموضوعـات الرفيعـة في الحيـاة العلميـة والأدبية والاجتماعيـة الراقيـة، ولا يمكـن أن ترتقـي بالمسـتوى الفكـري الذي نطمح بالوصول إليـه، ولا يمكن أن يُعَوَّل عليها في التعبير عن المعاني الدقيقة، ولا عن حقائق العلوم والآداب والإنتاج الفكري المنظم.

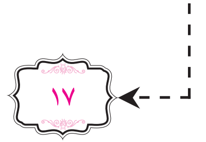
مِن أجْل ذلك فشِلت العاميةُ فشلًا ذريعًا في محاولات اعتمادها لغةَ كتابة وتدوين، وعجَزت كل المحاولات المستميتة من المستشرقين وأذنابهم عن أن تجعل من اللهجات العامية في البلاد العربية شيئًا مذكورًا.

* والعامية -في أي لغة- لا تثبت على حال واحدة، وتتطور باستمرار في أصواتها ومفرداتها ودلالاتها، وتتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص وطبقات الناس.

فعامية اليوم ليست كعامية الأمس، وهي غدًا غيرها اليومَ.

* وللعامية لهجات كثيرة[١] متفاوتة بين البلاد العربية، بل متفاوتة داخل البلد الواحد، أما الفصحى فإن لغة المتكلمين والكاتبين بها لغة صحيحة متوحدة على اختلاف البلدان والمقاطعات، والأزمان والأعراق.

(١) عَدَّ بعض الباحثين لهجات قارة آسيا فبلغت (٩٣٧) لهجة، أما لهجات قارة إفريقية فقد بلغت (٢٧٦) لهجة.



* والعاميـة قرينة الأمية[١]، أما الفصحى فلها ميراثها الزاخـر بالروائـع والكنـوز، المتشـبعُ بـضروب العلـوم والآداب والتشريع والفنون، وهي مَدْرَجة التعليم ولسانه المبين، وهي منارة التنوير والترقي، وحافظة التراث، ولغة الخطاب الثقافي، وعمود من أعمدة هُويتنا.

* واللهجـة العاميـة الدارجـة شيء طـارئ عـارض، بخـلاف الفصحى التـي هي امتداد طبيعـي أصيل للثقافة الإسلامية العربية العريقة.

* إن العلـم -بوصفـه تـراثَ الإنسـانية الممتـد- يُتِم فيـه اللاحق ما بدأه السـابق، ويبني عليـه، وإن الدعوة إلى العامية مدعاة إلى نسـف التراث العربي الضخم الذي دُوِّن بالفصحـى، واعتماد العامية سـينتهي بـوأد ملايين الكتب

(١) ومن شـأن (الثنائية اللغوية) أن توسِّـع الفجوة بين العـوام الأميين، والخواص المتعلمـين؛ فيـزداد احتجـاب العوام عـن المعـارف والرقي والشـؤون العامة، وسبب ازدهار العامية هو فشو الأمية، ومن هنا فإن نشر التعليم يحيي العربية.

العربية، وقطع صلة الخلف بسلفهم، وإعاقة الأواخر عن البناء على أساس الأوائل.

* لقد مَنَّ الله على العرب بالوَحدة اللغوية التي أَلَّفَتْ قلوبَهم على دين واحد، وذلك حين قَيَّدت لغةُ القرآن لهجاتِ العرب(١)، بل محَتْها بالرغم من فصاحتها وفطريتها، ثم ردَّت الجميع إلى لغة واحدة هي لغة قريش،

(١) ولقد أدى اختلاف هذه اللهجات في الماضي إلى وجود كثير من المشكلات والنزاعات، فقد جاء في التراث العربي أن رجلًا من قريش ذهب في رحلة إلى (ظفارِ) اليمن لزيارة أحد ملوك حِمْيَر، ولما وصل القرشي إلى (ظفارِ) توجَّه إلى قصر الملك، وكان قصر الملك مشيدًا فوق ربوة عالية، ولما وصل القرشي إلى قصر الملك استقبله استقبالًا حسنًا، ورحب به ترحيبًا كبيرًا، ثم إنهما خرجَا معًا يتجولان في حديقة القصر التي كانت تقع على حافة الربوة، وبعد أن انتهى الملك وضيفه من التَّجوال في الحديقة، أشار الملك إلى القرشي بقوله: ثب -أي اجلس (بلهجة الحميريين)، ولكنها تعني: اقفز (بلهجة قريش)-، فما كان من الرجل القرشي إلا أن قفز من فوق الربوة، استجابة لأوامر ملك حِمْيَر، فلقي مصرعه على الفور! فبُهِتَ الملك مما حدث، وحزِن حزنًا شديدًا لِما أصاب الرجل القرشي، وقال كلامًا أصبح مثلًا يتناقله الناس جيلًا بعد جيل: (مَن زار ظَفار، حَمَّر)، أي: إن الذي يزور ظفار يجب عليه أن يتقن لهجة حِمْيَر.

وإن أي دعـوة إلى اسـتعمال العاميـة بـدلًا مـن العربية هي طعنـة في قلـب الأمـة، وكفر بنعمة اللسـان العـربي المبين، وتمزيق لوَحدة العرب والمسـلمين، وعليه فإنها لم تكن يومًا دعوة إصلاح، ولن تكون، وإنما هي خطة تدميرية نسـجها أصحاب الأهواء، واسترْوح لها العملاء، وانساق وراءهم المقلدون، وإن هدفها البعيد هو انقراض لغة القرآن المجيد، ومحوها من الوجود.

إن الدعـوة إلى العاميـة، ونقـل العلـوم إليها، سـوف يفـرق بين أهـل الأقاليم في معارفهـم وآدابهم، ويباعد بين أفكارهـم، وتنقلب الأمـة إلى أمم مختلفـة لا يفهم أهلوها لغـة بعض، وهم أهـل شريعة واحدة، وفي سـلطان حاكم واحـد، وكل واحد منهم في حاجة إلى معونة الآخر في أقل الضروريات وأجَلِّها[١].

---

(١) «مستقبل اللغة العربية» (ص٦٣).

والواقع أن اللهجات العامية تختلف من مدينة إلى مدينة، بل من قرية إلى قرية، وربما تكون المسافة بينهما عدة كيلو مترات.

والواقع يشهد -أيضًا- أن العرب في مؤتمراتهم ووسائل إعلامهم لا يفهمون بعضهم كما ينبغي إلا عن طريق الفصحى التي تربط بينهم برباط وثيق؛ أما اللهجات المحلية فيصعب عليهم التفاهم بها، فالشامي يصعب عليه أن يفهم لهجة المغربي، والعكس صحيح، وبالفصحى يفهم الجميع.

يقول الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولْنُسائِلْهم عن العامية التي يريدوننا أن نأخذ بها: أفنأخذ عامية «العراق» التي لا يفهمها إلا «العراقيون» وحْدَهم؟

أمْ نستعمل عامية «الجزائر» التي تُستَغلَقُ على أبناء العروبة في كل مكان؟

أمْ نؤْثِـرُ عاميـة «اليمـن» أو «مـصر» أو «الشـام» أو «السودان»؟!.

وهـب أننا أخذنا عاميـة «مِصْرَ» مثـلًا، أفنختار عامية «القاهـرة» أمْ عاميـة «الصَّعيد»؟ وبينهما مـن الفرق ما هو أشدُّ بُعدًا من الفرق بين الفصحى والعامية...)[1].

(١) «العدوان على العربية» (ص٢٥).

﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾

أرأيت مَن آتاه الله ثوبًا جميلًا سابغًا سليمًا متينًا، يؤدي وظيفة ستر بدنه، وحمايته، وزينته على أحسن وجه، فإذا به ينبذه وراء ظِهريًّا، ويطرحه أرضًا، ثم يعدل عنه إلى أسمالٍ بالية ممزقة مهترئة متنافرة الألوان، رديئة الخامات، فيضم رقعة منها إلى أخرى ليصنع منها ثوبًا مرقعًا يستر به جسده!

يُقضى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حَسَنًا ما ليس بالحسنِ

إن هذا المعنى نفسه هو الذي عناه شاعر النيل (حافظ إبراهيم) وهو يدحض دعاوى أنصار العامية وخصوم العربية، ويقول على لسانها:

أيهجرني قومي- عفا الله عنهم-

إلى لغة لم تتصل برواةِ

سرت لُوثة الإفرنج فيها كما سرى

لعاب الأفاعي في مسيل فراتِ

فجاءت كثوب ضَمَّ سبعين رقعة

مشكلة الألوان مختلفاتِ

أليس في هذه الدعوة المشؤومة إلى استبدال العامية بالفصحى عزلٌ للعرب بعضهم عن بعض، وحرمانهم من وسيلة التفاهم والتواصل والتلاحم، والتلاقي الفكري والعلمي الذي تيسره العربية الفصحى؟!

يقول الدكتور أحمد الضبيب:

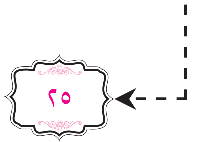
(لكن خطر العامية يظهر عندما تتجاوز مستواها الاجتماعي في التخاطب، لتحل مكان الفصحى في المدرسة والدواوين الرسمية ووسائل الإعلام، أو تكون أداة للكتابة في الشعر والنثر؛ عندئذ تصبح العامية طاردة للفصحى عن مواقعها الطبيعية، وفي ذلك خطر يهدد الأمة بالتمزق اللغوي طبقًا لكل لهجة، إذ إن كل لهجة سوف

تتحـول- مع مـرور الزمـن- إلى لغة، كما حـدث عند أمم أخرى. وفي هذه الحالة تصبح كل بيئة لهجية كيانًا مسـتقلًّا عـن البيئـات الأخرى، لـه لغته التـي لا تفهـم في البيئات الأخـرى، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على وَحدة الأمة. كما أن هذه اللهجات إذا ما استقلت فسوف يكون لها أدبها ولغتهـا الرسـمية، التـي تبتعد بهـا عن لغة الـتراث العربي الإسـلامي المكتوب بالعربية الفصحـى، وفي ذلك انقطاع عن الإرث الحضاري والتاريخي لهذه الأمة).

ثـم ينبِّـه إلى أن: (تشـجيع العاميـة لا يقل خطـرًا عن تشـجيع اللغـة الأجنبية، فـأي موقع تُطرد منـه الفصحى لتحله إحداهما بدلها يُعَدُّ انهزامًا للفصحى، وبالتالي يشكل خطرًا على الثقافة العربية، ويسهم في إضعاف الأمة وفقدان هُويتها أو تمزيقها)[١].

---

(١) «اللغة العربية في عصر العولمة» (ص٢١٤، ٢١٥).

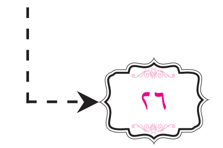


إن هيمنة التعدد اللغوي واللهجي على المشهد اللغوي العـربي يهدد بانحسـار اللغـة العربيـة، وإعـدام وظيفتها، وغياب تداولها.

إن الانحيـاز إلى الفصحـى والانتصار لهـا في مواجهة العاميـة خيـار يفرضـه الـشرع والعقـل والواقـع، ويزكيه الإخلاص للحقيقة والصالح العام للأمة.







ثالثة الأثافي[١] ومصيبة الدهر



لقد نَشِطَتِ الأيدي الآثمة، تعمل على هدم هذه اللغة، تارة في السر، وأخرى في العلن.

وهبَّتِ النِّيَّات المشبوهة تَكيد لها تحت ستار التجديد والإصلاح...

وكانت أُولى هذه الدَّعَوات الدعوةُ إلى نبذ الفصحى، وإحلال العامِّية محلَّها، وجعْلِها لغةَ الكِتاب كما هي لغة الخِطاب[٢].

---

(١) **الأثفية:** حجر مثل رأس الإنسان، وجمعها أثافيُّ بالتشديد، ويجوز التخفيف، وتُنصب القدور عليها. وثالثة الأثافي: القطعة من الجبل يُجعل إلى جانبها اثنتان، فتكون القطعة متصلة بالجبل.
قال خُفافُ ابنُ نُدْبَةَ:

وإن قصيدة شنعاءَ مني ... إذا حَضَرَتْ كثالثة الأثافي

ومعنى قولهم: رماه الله بثالثة الأثافي: رماه بالشر كله.

(٢) انظر: «العدوان على العربية عدوان على الإسلام» للدكتور عبد الرحمن الباشا (ص٢١).

وقد تولى كِبْرَها فريق من المستشرقين، كـ«ولهلم سبيتا»[١]، و«ويليم ويلكوكس»، اللذَين دَعَوَا إلى العدول عن لغة الكتابة الفصيحة إلى العامية المحكية الدارجة في التعبير الكتابي.

وقد اقترنت هذه الدعوة الأثيمة بأسماء المستشرقين الذين كانوا يَكيدون للفصحى، والذين كانوا على وعي كامل بأهمية اللغة وقدرتها على الحفاظ على هُوية الأمَّة من خلال ما تحمله الكلمة من بصمات حضارية وثقافية تصوغ الوعي وتحمي الخصوصية، ولكنهم كانوا -في الظاهر- يتذرعون بذرائعَ واهيةٍ لتسويغ دعوتهم، وما هي في حقيقتها إلا واجهة لعدوان مبيت ضد الفصحى.

هكذا بدأ الصراع أجنبيًّا عربيًّا، ثم لم يلبث أن تحول إلى صراع عربي عربي، حين تلقف هذه الدعوةَ أذنابُهم

---

(١) وقد رأى «سبيتا» أن اتخاذ العامية لغةً للكتابة بالنسبة إلى مصر وشعبها «مسألة حياة أو موت».

ووكلاؤهم من بني جلدتنا ذوي المقاصد التآمرية الواضحة[١]، وإلى هذا أشار (حافظ إبراهيم) في قوله على لسان الفصحى:

أيهجرني قومي- عفا الله عنهم-
إلى لغة لم تتصل برواةِ
سرت لُوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعي في مسيل فراتِ

المنحازون إلى اللسان العربي الفصيح كُثْر، تنوعت دوافعهم بين قومي عربي يتعصب لها، وأديب مُحِبٍّ لها، وباحث لغوي بصير بضعف العامية وعجزها[٢].

(١) فمنهم الراغبون في تمزيقنا تمهيدًا لاحتوائنا لُقَمًا صغيرة، ومنهم الطائفيون، ومنهم الشُّعوبيون الذين يكرهون العرب والعروبة، ومع كون لسانهم عربيًّا لكنْ كان حالهم كما قال المتنبي:

عربي لسانه، أعجمي رأيه، فارسية أعياده

(٢) بل كان منهم بعض المستشرقين الذين سحرت عقولَهم العربيةُ الفصحى، فوقعوا في غرامها، وعشِقوها عشقًا جَمًّا، فساهموا في إغنائها، وتعِبوا من أجلها، أمثال: نيكلسون، ونللينو، وبلاشير، وبراون، وأربري، ورايت، وغيرهم.

لكن الحقيقة التي لا تُنكَر أن أول من اهتم بالدفاع عن الفصحى وناضل في سبيلها هم أهل الدين؛ لِما يدركون من الارتباط الوثيق بين العربية والإسلام.

ولذلك فإن قضية الدفاع عن العربية في مواجهة استبدال العامية بها قضية إسلامية، وكذلك الدعوة إلى العربية تعلمًا وتعليمًا وكتابة وخطابة جزء أصيل من الدعوة إلى الإسلام.

وكما أنه لا يمكن دراسة الفيزياء دون دراسة الرياضيات، فكذلك لا يمكن الدعوة إلى الإسلام بدون دراسة العربية الفصحى؛ لأنها أداة فهمه وتبليغه.

ولا يُعرف عن عالم مخلص أنه استروح للدعوة إلى العامية أو تسامح معها، بل أنكرها العلماء على بكرة أبيهم- إلا من شذ- ووقفوا لها بالمرصاد.

لقد بدأت الدعوة إلى العامية بمحاربة الفصحى في الخطاب المحكي من خلال المسرحيات العامية التي

هجرت الفصحى وتمادت في استعمال العامية، ثم انتقلت الظاهرة إلى مجالات «الفن»، ثم انتقلت إلى مجال الكتابة من خلال الصحف والكتابات الأدبية التي كُتبت بالعامية على استحياء في البداية، وبجُرأة في النهاية.

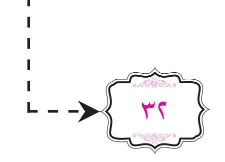
إلى أن شاعت الكتابة بالعامية في الصحافة الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي بصورة غير مسبوقة.

لكن «أم المصائب» وكارثة الكوارث تلك الظاهرة الخطيرة التي نبغت في زماننا، وإن لم يُتدارَكْ أمرها، وتُوأدْ في مهدها، فسوف تفتح باب شر مستطير، ولا يعود مكمن الخطر فيها إلى أنها تعتمد العامية لغةً للكتابة فحسْبُ، بل لأن الذين سقطوا في هذه الهُوَّة في هذه المرة قوم يوصفون بأنهم «دعاة إسلاميون»، يُفترض أنهم حُرَّاس الهُوية، وتُعقد عليهم الآمال في الذود عن حياض الفصحى، والضرب على يد الدعاة إلى الكتابة بالعامية، فإذا بهم ينضمون إلى خندق أعداء الفصحى، وهم لا يشعرون.

لقد طوعت لهؤلاء «الدعاة الإسلاميين» أنفسُهم أن يؤلفوا باللغة العامية المبتذلة كتبًا دعوية سعيًا وراء التسهيل المزعوم، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، ويحسبونه ﴿هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]، ولا يشعرون بالذنب بل بالفخر بمسلكهم الرديء، ولا يدركون أنهم صاروا بهذا قرَّةَ عين لأعداء الإسلام وخصوم الفصحى لغة القرآن العظيم.

وما أُتي القوم إلا من جهلهم بمكانة الفصحى، وعواقب هجرها، وغفلتهم عن دراسة «**تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها**»، وتقصيرهم في استبانة «سبيل المجرمين» الذين طالما حاولوا فرض العامية واستبدالها بالفصحى لكنهم فشِلوا في كل مرة، أما اليوم فها هم أولاء بعض حراس الحصون يفتحون لهم أبوابها، ويمهدون لهم الطريق لاقتحامها، قائلين: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، حتى كأن الفصحى تتكلم، وتئنُّ من تناقضهم وتتألم:





فـإمـا أن تـكـون أخــي بصدق
فـأعـرف منـك غَـثِّي مـن سميني
وإلا فـــاطَّــرِحْــنِي واتخـذنــي
عــــدوًّا أتــقــيــه ويـتـقـيـنـي

وذلك كي تصير الحدود واضحة بين الصديق والعدو، وفاصلة بين من ينصر الفصحى، ومن يحاول هدمها.

كانـت العاميـة موجـودة كلغـة محكيـة في عصورنـا السـالفة، لكـن علماءنـا لم يسـمحوا لهـا بالولـوج إلى مجال الكتابـة والعلـم، وبقيـت الفصحـى لغـة العلـم الشرعي والعلم الدنيوي والثقافة.

وانطلاقًـا مـن المبـدأ التجـاري النفعـي القائـل: إن «الزبـون» دائـمًا عـلى حق؛ كـسر بعـض الدعـاة القاعدة، وراحوا يسـاهمون في «الانحطاط» اللغـوي، وقتل الذوق العربي السـليم، وبدلًا مـن أن يرتفعوا بالنـاس إلى مدارج

العلـم ومراقي الفصحـى؛ صاروا ينزلـون إليهم وبهم إلى دركات العامية.

إن الواجـب على العلماء والدعـاة تحدِّي الأمر الواقع، والتصـدِّي لاسـتفحال العاميـة، وليـس الانبطـاح أمـام طغيانها.

وطريق النهضة والرقيِّ أن تنهض بمن هو دون، لا أن تهبط بمن هو أعلى. وقد قيل للرافعي: (انزل بأسلوبك إلى مسـتوى القراء)، فقال: (ولِمَ لا يرتفع القراء إلى مستوى ما أكتـب؟!). وقيـل لأبي تمام: (لِمَ لا تقول مـا يُفهم؟) فقال: (ولِمَ لا تفهـم مـا يقال؟). فـإذا نزلنا إلى حضيـض العامية حكمنا بالإعـدام على تراث مجيد وعريـق، وتكون العودة إلى الفصحى بعد هذا التردي أمرًا بعيد المنال.

إن ارتفـاع الفصحى عـن فهم العامـة لا يحمل عقلاء الأمـة العربيـة عـلى النـزول بالفصحـى إلى أي مسـتوى

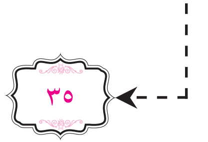
هابـط، بل الحكمة تدعو إلى الارتفاع بالسـواد الأعظم إلى مستواها.

والعامـة في بلادنـا يفقهونهـا بسـهولة إذا أصغـوا إلى الكلام الفصيح، وبخاصة القرآن الكريم.

إن تشجيع العامية -ولو بنيَّة حسنة- يساهم في توسيع الهـوة بـين العاميـة والفصحى على المـدى البعيـد، ويدفع بالأمة إلى مزيد من غربة الفصحى، وضياع العلم.

واعتـماد اللهجـة المحليـة المحـدودة يجعـل المتكلم بها سجين المحيط الذي تُتداوَل فيه هذه اللهجة.

(والداعيـة إذا تكلـم بالعاميـة- مـع مضمـون جيد- فإنه يحقق الانتشـار والشـهرة داخل قطـره في صفوف من لا يعـرف الفصحـى أو لا يحبهـا، لكنـه يحكم عـلى دعوته بالمـوت خارج حدود بلده، وفي صفـوف من يكره العامية من المثقفين والمتعلمين.



ونحـن الآن في عـصر التواصـل المدهش الـذي ألغى الحدود الجغرافية، وقرَّب المسافات البعيدة، فكيف نطالب الدعـاة- في مثل هـذا العصر- بالتقوقـع داخل اللهجات المحلية؟!)[١].

إن التنـازل سـيل منحـدر لا يوقفـه شيء، ومطاوعـة أهـواء بعض الناس سـوف يُفضي إلى تنـازلات تالية تزيد مـن فصول مأسـاتنا اللغوية الحاضرة، وتنتهـي بمزيد من الضياع والتغرب اللغوي:

- فاليوم نتقبل الكتابة والخطابة بالعامية لتسهيل الأمر على العوام.

- وغـدًا يأتي من يقـول: إن الفصحى صعبة على طلبة المدارس، فلندرسهم بالعامية.

---

(١) من كلام الدكتور البشـير عصام المراكشي في مقال له على الشبكة العنكبوتية حول استعمال العامية في الدعوة.

- واليـوم يقـال: سـنقتصر عـلى العـوام في الدعـوة بالعامية.

- وغـدًا تصبـح العامية لغـة الدعوة مطلقًـا حتى مع المثقفين.

- وبعـد غـدٍ تصبح لغـةَ تدريس العلـوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وفكر(١).

بـل قـد رأينـا وسـمعنا مـن يُـدَرِّس النحـو بالعاميـة المبتذلة!

ولقد سمعت الدكتور حسـام شاكر المنسِّق الإعلامي بجامعـة الأزهـر يذكر أن طلاب العلـم الأعاجم بالأزهر اشتكوا كثيرًا من أنهم -لكونهم لا يحسنون إلا الفصحى- لا يسـتطيعون فهـم كلام كثـير مـن المحاضريـن الذيـن يحاضرونهـم بالعاميـة، ولطالمـا طالبـوا بلفت نظـر هؤلاء

(١) من كلام الدكتور البشير عصام المراكشي.

الأساتذة إلى تحري النطق بالعربية حتى يستفيدوا ويفهموا، ولما لم يجدوا آذانًا صاغية لشكواهم جمعوا قاموسًا أسموه «كيف تتكلم العامية؟»، وتداولوه بينهم؛ كي يحلوا مشكلتهم.

إن الاحتجاج بالتقريب والتيسير على الناس حجة داحضة، ونظرة جزئية ضيقة، تتجاهل وتتعامى عواقب التمادي في اعتماد العامية، التي تحقق الانتشار من جهة، والانحسار من جهة أخرى.

وكم أنس العوام للكلام الفصيح وفهموه وارتاحوا له، وحفظوا منه الشيء بعد الشيء عن طريق الخطباء المتمكنين، ومن خلال نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، والأدعية المأثورة، ونصوص العلماء. وما أكثرَ العوامَّ من كبار السن الأميين الذين تأثروا بالخطباء، وخالطوا طلبة العلم، وكثر سماعهم لكلام العلماء،

فاستحضروا النصوص، وأحسنوا فهمها، ولو خاطبوهم بالعامية لَمَا حصَّلوا هذا الخير.

وهل ينكر أحد تأثير خطب الشيخ عبدالحميد كشك رَحِمَهُ ٱللَّهُ على العوام في مشارق الأرض ومغاربها؟! وما كانت إلا بالفصحى النقية، حتى قيل: إنه لم يلحن في خطبةٍ قط.

وما أكثرَ الدعاةَ إلى الله في عصرنا ممن انتشرت دروسهم وخطبهم ومؤلفاتهم في العالم الناطق بالعربية، وهم لا يستعملون العامية إلا نادرًا!

العامة يفهمون الفصحى



إن عامـة الناس يفهمون الفصحـى، ويتذوقونها، على خـلاف ما يدعيه خصومها، ولا تكون غريبة على أفهامهم إلا إذا تقعر المتكلم، واستخدم ألفاظًا غريبة.

يقول الدكتور السيد رزق الطويل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وجمهـرة المتكلمين بالعامية مـن أبناء العرب يفهمون الفصحى في يسر، ويسـتمعون للقرآن الكريم، فلا يجدون عـسرًا ولا عنتًـا في إدراك معانيـه، وهـو في أعـلى درجات الفصاحة والبلاغـة؛ والجهود التي بذلها أصحاب الأهواء لدعـم العاميـة لم تدعمها، وإنما كشـفت عيوبهـا، وأبانت عن عجزها وقصورها، بدليل أنه لما اسـتطاع دعاة العامية في فـترة من الزمن التسـلل إلى التعليـم الابتدائي في مصر،

وظهر كتاب: شرشر وفلفل، والبط يأكل فت، والوز يأكل رز، تعرضت لحملة نقد شديدة، ورفض الناس- حتى العامة- هذا الاتجاه، ورد كيد أصحابه إلى نحورهم، وهذه هي بعض مظاهر القصور والعجز في العامية)[١].

وينقل الدكتور محمد حسن عبدالعزيز عن أمين فكري أن: (المسافة بين العامية والفصيحة ليست كبيرة، فالعامية لم تبعد عن الفصيح بما تصير به لغة مستقلة، فإن المواد هي المواد الأصلية بعينها إلا ما زاد، وهو قليل لا يُلتفت إليه في تكون اللغات... وقد عَرَض على المفردات تحريف وتغييرٌ بنقص أو زيادة لم يَخْف بها أصل اللفظ.

ثم يضيف احتجاجًا آخر لتفضيله الفصيحة، بقوله: فالتحريف وفساد التركيب في لغة العامة لم يذهب بهم عن فهم الصحيح بالمرة، بل هم يفهمون منه ما اتفق مع ألفاظهم في المادة، وإنما يعمى عليهم فهْمُ الغريب.

(١) «اللسان العربي والإسلام» (ص١٤٠).

وثقافة العامة الدينية تتيح لهم ذلك، فهم يحفظون شيئًا من القرآن الكريم يتلونه في صلواتهم، وشيئًا من الحديث... ثم هُم في كل جمعة يسمعون الخطبة باللغة الفصيحة... ويفهمون ذلك)[(١)].

وينقل عن الشيخ محمد شريف سليم قوله: (إن العامة لا يصعب عليهم أن يفهموا الفصحى، فالعامة تفهم الجرائد وهي مكتوبة بالعربية، وتفهم المكاتبات الرسمية وهي مدونة بالعربية، وتفهم ما يلقيه عليهم العلماء بالعربية من تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والمواعظ الأدبية، كل هذا يدلنا دلالة ظاهرة على أنه من السهل جدًّا على العامة الانتقال من العامية إلى أصلها العربي)[(٢)].

نحن لا ننكر ضرورة تجديد الخطاب الديني، والإبداع في أساليب التواصل مع الناس، لكن ذلك لا ينحصر في

(١) «مستقبل اللغة العربية» (ص ٦٤).
(٢) نفسه (ص ٦٧).



مخاطبتهم بالعامية؛ إذ إن «في أساليب اللسان العربي الفصيح مراتب متفاوتة بين علمي ووعظي وفكري، وسهلٍ سلس كانسياب المياه في الغدران الرقراقة، وصعب خشن كتقطيع جلاميد الصخر، وفصيح عَصِيٍّ على غير الجهابذة، وفصيح متداول لا يجهله أحد»[١].

---

(١) من كلام الدكتور البشير عصام المراكشي.

يا نعايا[(١)] الفصحى!



أعرض فيما يلي نماذج تطبيقية من كتابات أنصار العامية خصوم العربية؛ لترى بعينيك الابتذال والانحطاط والانتكاس الذي يدعونا إليه «المبشرون» بالعامية:

١- قال الأستاذ الدكتور السيد رزق الطويل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(إني أشعر بقدر كبير من الأسى وأنا أقرأ بعض مذكرات شيخ الأمناء أمين الخولي، وهو يتخذ منهجًا غريبًا يعده تجديدًا في ميدان البلاغة والأدب، فيقدم القرآن وتفسيره بعبارات عامية مبتذلة، يقول في شرح قوله تعالى:

(١) يقال: نعى الميت يَنْعاه نَعْيًا ونَعِيًّا، إذا أذاع موته، وأخبر به، وإذا ندبه، وفي الحديث: «يا نعايا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة الخفية»، والمعنى: يا نعايا العرب جئنَ فهذا وقتكن وزمانكن، يريد أن العرب قد هلكت، وانظر: «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٨٦).

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٢، ٢٣]، (إنت مش حتسمع اللي في القبور، والحقيقة أنه مش قدام أموات، وإنما قدام ناس ألواح وبهايم، والقرآن بيقول له: إنك حريص قوي على هدايتهم، الأحسن أنك ما تحرصش كثير على هذه الهداية، قال ذلك، لأنه شاف أنه لفرط عنايته بأن يهتدي هؤلاء القوم أن يخرج عن حده فينسى أن مهمته التبليغ، هو عمال يحرق في دمه مع اناس دول، ووفاؤه لمهمته هو الذي يحمله على الإسراف في الإلحاح، ويهز في هذه الألواح، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأي ثمن، فقال له الله: يا أخي إنت حارق نفسك ليه...)[1].

عجبًا يا شيخ الأمناء!! عفا الله عنك، ولعلها منك محاولة لتفهيم طلابك في كلية الآداب الذين أحسست

(١) هذا النص من كتاب «الشعوبية في الأدب العربي الحديث» لأنور الجندي. ويذكر المؤلف أن الكراسة التي بها هذه المذكرات حصل عليها الشيخ علي العماري من بعض طلبة كلية الآداب.

فيهم عجمة، ولم يكن هذا في خطتك!!!، لكني أقول: أهذا هـو التجديد في البلاغـة؟! لقد وضعت يـدك مع الأيدي المشـبوهة التي حملـت إثم الدعـوة إلى العاميـة والابتذال، لتنقطـع أواصر هـذه الأمة!! إنها اسـتهانة باللغـة بالكتاب العزيز، وبأسلوبه الفصيح، واستهانة بطلاب العلم الذين جلسوا أمامك ليسمعوا منك هذا الكلام.

مـا أتصور الشـيخ أمـين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقالته تلـك إلا أنه جالس على «مصطبة» جلسة مُغَيَّب، يجر أنفاسًا عميقة من نرجيلته، يفـضي بين الحين والحين بهذه الكلمات؛ على أنك فيما قلت وضعتَ العامية في موضعها الصحيح، وأثبتَّ من حيث تريـد أو لا تريد عَيَّها وعجزها وقصورها؛ لأنك في شرح نصف سطر من كتاب الله قدمت نحو عشرة سطور، تلـف وتـدور، تحاول أن تسـتخرج المعاني التـي توحي بها الكلمات الفصيحة، فذكرت عبارات عامية ومبتذلة كثيرة.

عفا الله عنك مرة أخرى، ونرجو ألا يكون وراء ما قلت قصد سوء؛ لأن العبارات التي قيلت لا تطاق[1].

٢- كان (يعقوب صنوع)[2] أول صحافي استجاب للدعوة إلى الكتابة بالعامية، حيث أعاد إصدار صحيفته (أبو نضارة) في باريس، بتاريخ ٢١ من مارس ١٨٧٩م، باللغة العامية، وقال في افتتاحية العدد الصادر في ١٧ من يوليو سنة ١٨٨٠ بالعامية المصرية: (ولما بلغني بأن صدر أمر من ناظر الخارجية بقفش وكسر الصفارة الساعية في استحصال التمدن والحرية، يا رب نور عقلي وفهمي، وانصرني على الواد مصطفى فهمي، اللي أمر بتعطيل صفارتي البهية، فتأسفوا أبناء مصر أجمعين، وظنوا أن علينا انتصر الظالمين، فَشَرْ والله العظيم) إلى آخر هذا السخف

(١) «اللسان العربي والإسلام» (ص ١٢٠، ١٢١).

(٢) يهودي مصري وُلد سنة ١٨٣٩م، ومات في باريس سنة ١٩١٢م، أصدر صحيفته (أبو نضارة) سنة ١٢٩٥هـ، وكانت بالعربية الفصحى، ثم أغلقها الخديوي إسماعيل لما فيها من نقد مُرٍّ لاذع.

المتكلف الذي يثير الاشمئزاز، وأؤكد أنه لو قرأ عوام مصر هذا الكلام لن يستسيغوه، ولن يفهموه، لكنه التضليل.

ثم يكتب في العدد الصادر في ٢٦ من مارس سنة ١٨٨٢م الافتتاحية بالعامية الشامية، يقول: شو هل حكي ياخيو، ده مو كلام محرر بصير، فرنجي جنابك، حاشا، بقى شو هل ذم في الأمير... الخ[(١)].

٣- وكتب سعيد عقل في مقدمته لديوان ميشيل طراد (جلنار) في الزجل، مثالًا مما كتبوه بالعامية: (أول ما بيجابهك الجمال بإنّو بيغيرك صوب الزيادي وهو عميلزّك... نشوء كل معرفة فيك بترافقو لزّي، بل اللزّي البترافق المعرفة البيعملها الجمال بتفرق عن غيرها بإنّو فيها شيء من التخدير، من الحلم، من الهز، كأن الكون اللانت فيه مرجوحا)[(٢)].

---

(١) تحقيق في صحيفة الشرق الأوسط، العدد الصادر في ١٦/ ١١/ ١٩٨٣ تحت عنوان: دعاة العامية الذين يطالبون بالتخلي عن الفصحى. وانظر: «اللسان العربي والإسلام» (ص٦٢، ٦٣).

(٢) «العربية في مواجهة المخاطر» للدكتور عبدالكريم الأشتر (ص٦٠).

وحاول أخي القارئ- من غير الشمال المغربي- أن تفهم هذا الحوار:

١- قال شحال من ساع؟

٢- قال ل تسعود

٣- وياش؟

٤- قال ل تسعود ساكت

كما وردت في «معجم لهجة شمال المغرب» (ص١٥١).

ومعناها:

١- قال له: كم الساعة؟

٢- قال: التاسعة.

٣- قال له: وأي شيء؟

٤- قال: التاسعة تمامًا[١].

---

(١) «الدعوة إلى العامية: المسار والأهداف» للدكتور مصطفى بن حمزة (ص٢٠).

الفصحى تقهر أنصار العامية



من آيات الله تعالى الباهرة أن الفصحى الغالبة القاهرة أجبرت خصومها على أن يخضعوا لسلطانها، وأعجزتهم -بسحرها- عن التحرر من مجالها وجاذبيتها.

فالدعاة إلى الكتابة بالعامية كتبوا دعاواهم الفاسدة بالفصحى، ولو كُلِّفوا أن يصوغوا دعايتهم بالعامية لما استطاعوا؛ لأنها غير مؤهلة للتعبير الرشيق، والأسلوب العربي الحكيم الذي يتذوقه أقل الناس حظًّا من التعليم.

لقد أفلست العامية وافتُضِحت حين حاول أنصارها امتلاك ناصية التعبير الكتابي في الثقافة والفكر، فسحَقتها الفصحى، وأظهرت التجرِبة العمليةُ الفشل الذريع لمن

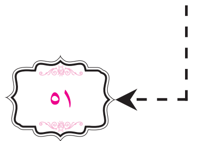


أقسموا(١) أن يكتبوا بالعامية ولا يرجعوا عنها، ثم لم يلبثوا أن هجروها وسعَوْا حثيثًا إلى الفصحى السهلة الميسرة، وآثروا خيانة العهد، والحنث في القسم، فقرروا الاستسلام أمام الفصحى.

يقول الدكتور أحمد درويش وكيل كلية دار العلوم بالقاهرة: (واللافت للنظر أن معظم هؤلاء الذين يدعون إلى هجر الكتابة العربية لصالح «الكتابة العامية» يعبرون عن أفكارهم تلك بلغة عربية صحيحة غالبًا، ولا يستطيعون أن يعبروا عن آرائهم أو يدافعوا عنها باللغة العامية، والتجارِب القليلة التي حدثت لكتابة

---

(١) الإشارة هنا إلى لويس عوض، وأحمد الشايب. ومن العجيب أن المنصِّر الإنكليزي «وليام ويلكوكس» وهو من أشد المتحمسين الداعين إلى هجر الكتابة بالفصحى والتحول عنها إلى العامية، كان -وهو الأعجمي- يخاطب المصريين باللغة الفصحى بيُسر وسهولة، فكيف يستكثر عليهم أن يفهموها وهي لغتهم؟!



فكـرةٍ مـا باللغـة العاميـة، لم تحقق كثـيرًا من النجـاح مثلما حـدث لكتَّـاب مرموقـين مثـل لويس عـوض ومصطفى صفوان وغيرهما ممن ظلـت كتاباتهم بالعامية أقل ما كتبوه تألقًا ونجاحًا...)[١].

(١) «إنقاذ اللغة إنقاذ للهُوية» (ص١٣١).

الحل هو ضبط العَلاقة بين الفصحى والعامية



عانت السياسة التعليمية العربية في شؤون اللغة منذ أواخر القرن التاسع عشر - ولا تزال تعاني - كثيرًا من المعوقات وعدم الاستقرار، بسبب الثنائية اللغوية: الفصحى، واللهجات التي جثَمت فوق صدر العالم العربي منذ عهد بعيد. سيطرت اللهجة المحلية على ألسنة الناس في حياتهم العامة، وظلت الفصحى متأبِّيةً على الجمهرة الغالبة من الشعب، لا تكاد تُستعمل في غير الكتابة فحسب.

وقد كان الاهتمام عبر تاريخ العرب موجهًا إلى الفصحى لغة الدين، والثقافة، والفكر الرفيع، وبذلك حُفِظت اللغة في محيطها العلمي والأدبي، وعاشت إلى

جوارها في البيئات العربية ألسنةٌ ولهجات عربية يستعملها الناس في حياتهم اليومية، ويؤلفون بها ألوانًا من الأدب الشعبي[(١)].

ولا شك أن التوحد حول الفصحى كتابة وكلامًا هو الحل الأمثل للثنائية اللغوية، ولكن العامية المحكية بحكم الواقع هي لغة الحياة اليومية، وعلى أساس مبدأ «سدِّدوا، وقارِبوا» ينبغي أن يكون الهدف هو تنظيم العلاقة بين العامية والفصحى، وليس إعدام اللغة المحكية التي هي ظاهرة في كل اللغات، والاختلاف بين اللهجات العربية ظاهرة طبيعية ما دام في حدوده المعتدلة المألوفة التي تميز الشعوب بعضها من بعض.

وقد دامت هذه الظاهرة قرونًا طوالًا، ولم يهدد ذلك سلامةَ اللغة؛ فمنذ القرون الأولى كان الناس يميزون بين لهجة العراق، وأهل الشام، وأهل مصر، وأهل المغرب،

---

(١) «مستقبل اللغة العربية» للدكتور محمد حسن عبدالعزيز (ص ٥٧).

وأهـل الباديـة، ولكن بقيت الفصحى لغـة الكتابة والعلم والثقافة.

ومـن القواعـد المقرَّرة عند علـماء اللغة: أنه يسـتحيل عـلى مجموعة بشرية تعيش في مسـاحةٍ أرضية شاسِـعة، أن تَصطنِع في حديثهـا اليومي لغة موحَّدة، تخلو من اختلافٍ صوتيّ، أو دَلاليّ، أو اختلافٍ في البِنية أو التراكيب[1].

فلتوضـع كل واحـدة مـن الفصحـى والعاميـة في إطارهـا الصحيح، بحيث لا تطغى العامية على الفصحى، ولا تنازعها في مكانتها السيادية في حياتنا وثقافتنا.

(١) «فصول في فقه العربية» لرمضان عبدالتواب (ص٤١٤).

وربما صَحَّت الأجسادُ بالعللِ



إن الجراثيم يغريها ضعف جهاز المناعة في الجسم، فتزدهر، وتنتعش، وتهاجمه.

ومن سُنة الله تعالى أيضًا أن الميكروبات الغازية تستحث جهاز المناعة وتحفزه ليقاومها ويقضي عليها.

فعسى - إعمالًا لسُنة التدافع - أن تكون الحملة على لغة الضاد سببًا في أن يُعامَل أصحابُها بنقيض قصدهم، فينشأ جيل من طلاب العلم النابغين يتصدون لهذه الحملات ويعيدون إلى «هُويتنا الناطقة» اعتبارها ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، ويستكشفون كنوزها وأسرارها، ويتتبعون دقائقها وفضائلها، ويجددون شبابها وحيويتها، قال المتنبي:

قصدوا هَدْمَ سورها فبنَوْهُ
وأتَوْا كي يُقصِّروه فطالا

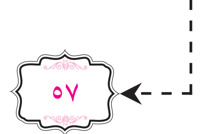
واسـتَـجَـرُّوا مكايد الحـرب حتى
تـركـوهـا لـهـا عـلـيـهـم وبــالا
رُبَّ أمـرٍ أتـاك لا تَـحـمَـدُ الفُعَّـ
ــالَ فـيـهِ وتَـحـمـدُ الأفـعـالا

إن من الملاحظات الواضحة أمام من يتتبع سير الأحداث، ويرقب عن كثب معارك الفصحى والعامية بكل صورها، يجد أنه عندما تشتد الحملة ضد اللغة والتراث في أي عصر تواكبها معركة مضادة تتصدى لها وجهًا لوجه، كحركة إحياء التراث، أو ظهور مفكرين أصلاء، أو شعراء مبرزين على صعيد الفصحى[1].

وما الشاعر العظيم (محمود سامي البارودي) منا ببعيد، فقد رَدَّ هذا الشاعر الفحل الرُّوحَ لشعر العربية، وأسمع الناس في أواخر القرن التاسع عشر لغة حية، مؤثرة، رأوا فيما سمعوا النابغة، وعنترة، والكُمَيْتَ،

---

(١) انظر: «اللسان العربي والإسلام» د. السيد رزق الطويل (ص٩٧).



وأبا تمام، والمتنبي، يكلمونهم في أحداث عصرهم[١].

قبلَ البارودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان الشعر العربي قد هوى إلى درك من الانحلال جعله نَسيًا منسيًّا، وإذا بالبارودي يروض القول على مثال الأقدمين، ويبعث الشعر العربي واللغة العربية لفظًا ومعنًى من مرقدهما، ويرد إليهما حياة ذَوَت وذبلت منذ قرون متعاقبة.

«لم يتعلم البارودي النحو والصرف والعَروض والقوافي، لكنه قال الشعر طوعًا لموهبته، بعد أن قرأ الشعراء الأولين، وحفظ عنهم كل ما اطمأن إليه من أقوالهم، وأنت لذلك تستطيع أن تقول إنه عاصرهم وعاش معهم[٢]، فلم يكن أبناء زمانه من المصريين يعرفون اللغة العربية، وإنما

(١) نفسه (ص٥٢).

(٢) لقد اعتمد البارودي في اكتساب لغته على أسلوب «الغَمْر» أو «الانغمار» في أعماق اللغة العربية الأصيلة، ولم يكتسبها اصطناعًا وتكلفًا، وهذا الانغمار (Immersion) هو الأسلوب نفسه الذي به يكتسب الطفل لغته الأم من بيئته، وتحاول أن تحاكيه المناهج الحديثة في تعليم اللغات، كما هي فكرة برنامج «حجر رشيد» أو (Rosetta stone) العالمي.

كانوا يتحدثون بلغة أخرى هي العامية، فحياة البارودي المتصلة باللغة العربية كانت بين الشعراء الجاهليين وشعراء العصرين الأموي والعباسي، مِن ثَمَّ صارت لغتهم لغته، وصارت سليقة له كما كانت سليقة لهم، فكان يقولها ويتصرَّف فيها كما كانوا يقولونها ويتصرَّفون فيها»[(١)].

ولقد انتقد بعض هزيلي الهمة ذلك الشاعر الملهم أشد النقد؛ لأنه عمل على إحياء عهد الشعر العربي الجزل، ونفخ فيه روحًا تنشره من الجَدَثِ الذي انطوى عليه القرون الطوال، فردَّ على ذلك النقد ردًّا بسيطًا، لكنه أفحم به هؤلاء المنتقدين، فقال:

تكلمتُ كالماضينَ قبلي بما جَرَتْ
به عادةُ الإنسانِ أن يتكلما
فلا يعتمِدْني بالإساءة غافلٌ
فلابد لابن الأَيْكِ أن يترنَّما[(٢)]

(١) مقدمة «ديوان البارودي» للأديب محمد حسين هيكل (ص٢٦).
(٢) نفسه (ص٩).

كتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر»



لقد كُتب الكثير من الدراسات حول منشأ الدعوة إلى العامية في الشرق العربي، لكن هذا الكتاب (الرائد) كان أهمها على الإطلاق، وهو أطروحة علمية قيِّمة للدكتورة (نفوسة زكريا سعيد)، قدمته سنة ١٩٦٤م لنيل درجة الدكتوراة في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ونالت عنه جائزة التفوق في الدكتوراة في عهد (جمال عبدالناصر).

والمؤلفة هي الأديبة النابغة المبدعة (المتفوقة دائمًا) والتي كانت من صفوة الباحثين، فنالت حظوة عند أساتذتها، لاسيما أستاذها الكبير الدكتور (محمد محمد حسين) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي أشرف على رسالتها المذكورة.

لقد كان هذا الإنجاز العلمي من المصداقية، والموضوعية، والإتقان، والاستيعاب، والتقصِّي، والرصانة على المستوى الذي جعله بحثًا علميًّا متفردًا، ومَعِينًا استقى منه كل من تناول الموضوع بعده تقريبًا، وبه حفرت الدكتورة نفوسة -رحمها الله وجزاها عن اللسان العربي خيرًا- لنفسها مكانًا بين نخبة الباحثين، وطبعت بصمة عميقة في تاريخ الدفاع عن اللسان العربي، جديرة بأن تستمطر لها الدعوات بالرحمة والمغفرة وحسن الثواب.

وشرفت الدكتورة نفوسة رَحِمَهَا ٱللَّهُ بأسنى شرف يناله باحث حين خلع عليها وعلى بحثها الماتع شيخُ العربية وفارس فرسان الدفاع عنها في عصرنا العلامة أبو فهر محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعلى قلادة يطمح إليها باحث، وذلك حين أفاض قلمه السيال في مدحها والثناء على بحثها المذكور، وبلغ تقديره إياهما الذروة حين قال: «ولا أظنني

قـرأت منذ سـنوات طوال كتابًـا يتناول المسـائل العامة في حياتنا الحديثة، بذَلَ فيه صاحبُه من الوقت والجهد والأناة ما بذلَتِ الدكتورة نفوسـة في كتابها هذا، ولا أظنني قرأت أيضًا في هذا الدَّهر كتابًا، ينبغي لكل عربي وكل مسـلم أن يقـرأه من ألِفه إلى يائه، يضارع هذا الكتاب. وحسْـبها أنها اسـتطاعت أن تجلوَ للناس صـورة صحيحةً صادقة مؤيدة بالأسـانيد، بلا تزيُّد ولا كذب ولا ادِّعاء، عن أكبر معركة تـدور في العالم العربي والإسـلامي، وهي معركـة البناء أو الهدم، معركة الحياة أو الموت، معركة الحرية أو الاستعباد، معركة وَحدة العرب والمسلمين بلغة عربية هي الفصحى، أو تفـرُّق العـرب والمسـلمين أشـتاتًا بلغـات متنابذة، هي العامية.

ولـو كان لي مـن الأمـر شيءٌ؛ لأمـرت أن يُطبـع هـذا الكتـاب ليكـون في يـد كل شـاب وشـابة، وكل رجـل

وامـرأة، ويكـون له مختصر ميسر[١] لكل مـن مكَّنه الله من القراءة»[٢]. اهـ.

ولا مزيد...

*** فإن القول ما قالت حَذامِ ***

محمد أحمد إسماعيل المقدم

ثغر الإسكندرية في الاثنين
التاسع عشر من المحرم ١٤٣٩

---

(١) وقد وفَّق الله تعالى أخانا الفاضل الدكتور حمادة أحمد إسماعيل إلى وفاء هذا الدَّيْن، وتحقيق هذا الأمل، فاختصر كتاب الدكتورة نفوسة رَحِمَهَا ٱللَّهُ في نصف حجمه تقريبًا، وقدَّم له أستاذ الجيل العالم الرباني الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي -حفظه الله-، وطبعته (دار الأمل) بالإسكندرية في ثوب قشيب، فجزى الله الدكتور حمادة خير الجزاء، وعافاه من كل سوء وبلاء، وشفاه شفاء تامًّا عامًّا لا يُغادر سَقَمًا، وأحسن لنا وله العاقبة في الدنيا والآخرة، إنه أقرب مَن دُعي، وأجودُ من أعْطى، وأكرمُ من سُئل.

(٢) «أباطيل وأسمار» (ص١٢٥، ١٢٦).

الفهرس

تم بحمد الله